# نافذة على لاهوت التتلمُذ عند مرقس
# (مر ١/١٦-٢٠)

## ١- لماذا في البداية؟

يضع مرقس، كما متّى (مت ٤/١٨-٢٢)، دعوة التلاميذ الأوّلين في أولى صفحات إنجيله. ما كاد يسوع يعود الى الجليل من اليهوديّة، ويبشّر بتمام الزمان واقتراب ملكوت الله، وبالتالي بضرورة التوبة وبالإيمان بالإنجيل (مر ١/١٤-١٥)، حتّى دعا إليه زوجين من الإخوة، صيّادين، سمعان وأخاه أندراوس، يعقوب وأخاه يوحنّا، من على شاطئ بحيرة طبريّة.

### اتّباع مجّانيّ

لم يكن يسوع قد صنع بعد أيّة معجزة تعطي لكلامه قوّة، فيجذب هؤلاء الأشخاص. لوقا، على العكس، أخّر خبر دعوة التلاميذ إلى الفصل الخامس من إنجيله (لو ٥/١-١١)، حتّى يتيح ليسوع أن يثبت نفسه من خلال بعض الآيات والأعاجيب. فها هو يسوع يشفي حماة بطرس في بيت الأخير وأمام عينيه، فضلاً عمّا فعله في كفرناحوم (لو ٤/٢٣، ٣١-٣٧)، ممّا جعل خبره ينتشر بسرعة في تلك الناحية كلّها. يبدو إذًا لوقا في روايته أكثر إنسانيّةً ومراعاةً للمنطق من متّى ومرقس. لقد راعى متطلّبات الدعوة الإنسانيّة، وما تفرضه أحيانًا من ضمانات مسبقة يجب أن يجدها المدعوّ في شخص داعيه. كلّ هذا لا وجود له عند الإنجيليَّين الأوّلين: إذا تبع هؤلاء الأشخاص يسوع فلأنّهم أُجتذبوا بشخصه، وبشخصه فقط. استطاع يسوع أن يكلّم دخائلهم ويحرّك إراداتهم. أُصطيدوا بمجّانيّة خالصة، من دون أن يروا ولا أيّة معجزة مسبقة ليسوع ترفع من شأنه في أعينهم. ما من معرفة مسبقة بين الداعي والمدعوّين. يظهر إذًا يسوع كشخصٍ مركزيٍّ، قويٍّ، جذّاب، لا يحتاج إلاّ إلى بضع كلمات حتّى يجعل بعض الرجال يتركون مقتنياتهم وأهلهم ويتبعونه.

لقد برع مرقس، عبر أسلوبه السريع، في جعلنا نتذوّق سلطان يسوع ومهابته. فعل "رأى"، الذي استعمله هنا، هو أبعد من عمليّة نظر عاديّة. لقد ألبسه مرقس سلطة يسوع نفسها، حتّى أنّه كانت تكفيه نظرة واحدة حتّى يسبر أعماق محدّثيه، ويُحدث فيهم ما يُحدثه خطاب طويل. هو مَن أخذ المبادرة تجاههم، ولو بنظرة ثاقبة. نفس الاختراق سيحصل مع لاوي وهو جالس على طاولة الجباية: "رآه" يسوع، فدعاه، فقام وتبعه (مر ٢/١٤).

## إكتشافٌ دائم

زوجا الإخوة هم إذًا أوّل من لبّى دعوة يسوع السابقة: "توبوا وآمنوا بالإنجيل" (مر ١/١٥). أمّا اكتشافهم لشخص مَن دعاهم، فيتمُّ رويدًا رويدًا، عبر الإنجيل بأكمله، في مسيرة تبدأ هنا ولا تنتهي إلاّ عند صعود يسوع إلى السماء. ما إن رأى يسوع التلاميذ يتبعونه حتّى ابتدأ بالعمل. قبل ذلك، لم يأتِ بأيّ عمل. لذا، نراهم يكونون حيث يكون المعلّم. إنّهم برفقته دائمًا. فمسيرة التَلمَذة، في إنجيل مرقس، لا تتوقّف إلا نادرًا جدًّا، حيث يظهر يسوع وحيدًا من دون تلاميذه. في مر ٦/١٤-٢٩ مثلاً، يقطع مرقس سياق خبره حتى يورد قصّة هيرودس مع يسوع ومع يوحنّا المعمدان، من دون أيّ ذكرٍ للتلاميذ، الذين سبقوا وذهبوا إلى الرسالة كما أمرهم يسوع. ولما عادوا واجتمعوا عند يسوع، ابتداءً من الآية ٣٠، عاد سير القصّة إلى طبيعته.

التعرّف إلى شخص المعلّم هو إذًا "طريق"[١] طويل، يبدأ بعد الدعوة مباشرةً لا قبلها. يكفي أن ننظر إلى أوّل فعل بعد هذا الخبر حتّى نجده في صيغة الجمع لا المفرد: "ودخلوا كفرناحوم" (١/٢١)، أي يسوع والذين دعاهم، أو حتّى إلى القراءة بالجمع "جاؤوا" (ἤλθον)، في الآية ٢٩، المضمونة أكثر من القراءة بالمفرد "جاء" (ἤλθεν) غير المرقسيّة.

## مدٌّ وجزر

لم تخلُ مسيرة يسوع هذه مع تلاميذه من أوقات صعبة، على يسوع وعلى تلاميذه أيضًا. فكثيرًا ما أعرضوا عن فهم سرّه لغلاظة قلوبهم وقلّة إيمانهم، فتعرّضوا للتوبيخ، الشديد الوقع أحيانًا. في مر ٨/١٧-٢١ مثلاً، نجد سلسلة من الأسئلة التوبيخيّة، الفريدة في العهد الجديد من حيث شدّة وقعها. هذا البطء في الفهم دلَّ عليه مرقس، بطريقة رمزيّة مبطّنة، من خلال شفاء الأعمى الصعب في الخبر التالي (٨/٢٢-٢٦). نراهم كثيرًا ما يتساءلون حول شخصيّة معلّمهم التي بهرتهم: "مَن ترى هذا حتّى تطيعه الريح والبحر" (٤/٤١)؛ أو حول تعليمه: "فلمّا اعتزل الجمع، سأله الذين حوله مع الإثني عشر عن الأمثال" (٤/١٠). لأجل ذلك، ما ترك يسوع مناسبة إلا وعلّم فيها تلاميذه، وشرح لهم على انفراد كلّ شيء: "ولم يكلّمهم من دون مثل، فإذا انفرد بتلاميذه فسّر لهم كلّ شيء" (٤/٣٤؛ راجع أيضًا ٨/٣١؛ ١٠/٣٢). ربّما، يختصر بطرس في شخصه مسيرة كلّ تلميذ: يعترف بمسيحانيّة المسيح، لكنّه ما يلبث أن يُمسك عن فهم جوهر هذه المسيحانيّة، فيعترض على كلام يسوع الذي ينبئ بموته القريب؛ فما كان من المعلّم إلاّ أن نعته بلقبٍ قويّ، "يا شيطان" (٨/٣٣).

---

[١] إن المفردة اليونانيّة ἡ ὁδός ("الطريق") عزيزة جدًّا على قلب مرقس. كيف لا وهو يصف تبشير يسوع كتجوالٍ مستمرّ في الجليل، صعودًا نحو أورشليم.

## ٢– بنية النصّ

من بعد هذا العرض الوافي لأهمّيّة موقع نصّ دعوة التلاميذ الأوّلين، لنرَ كيف بنى مرقس خبره هذا. بناه بطريقة متوازية (parallèle)، مقابلاً بين دعوة زوجين من الإخوة: سمعان وأندراوس، يعقوب ويوحنا. لم يكرّر مرقس مفرداته كلّها في اللوحتين، بل غيَّر فيها ليعطي النصّ بعض الحيويّة، وليتجنّب فخّ التكرار المملّ. يوضّح هذا العرض بنية النصّ المتوازية، والتغييرات التي طالت مفردات لوحتيه:

**أ**: [١٦] وكان يسوع سائرًا على شاطىء بحر الجليل

**ب**: فرأى سمعان وأخاه أندراوس

**ج**: يلقيان الشبكة في البحر، لأنّهما كانا صيّادين

**د**: [١٧] فقال لهما: "اتبعاني أجعلكما صيّادي بشر"

**هـ**: [١٨] فتركا الشباك لوقتهما وتبعاه

---

**أ'**: [١٩] وتقدّم قليلاً

**ب'**: فرأى يعقوب بن زبدى وأخاه يوحنّا

**ج'**: وهما أيضًا في السفينة يصلحان الشباك

**د'**: [٢٠] فدعاهما لوقته

**هـ'**: فتركا أباهما زبدى في السفينة مع الأجراء وتبعاه

ما الهدف من هذه البنية؟ كلّ شيء في هذا الخبر بني بطريقةٍ نموذجيّة، لتصبح دعوة هؤلاء الأربعة مثالاً لكلّ دعوة: يسوع يدعو وهم يلبّون سريعًا النداء.

**أ/أ'**

بينما يسير يسوع على شاطىء بحر الجليل دعا تلاميذه. الجليل هو خزّان الدعوات الأولى، منه يأتي معظم التلاميذ الأوّلين. يكتسب أهميّة كبرى في إنجيل مرقس: يبدأ يسوع رسالته ويمارسها وينهيها في الجليل. "إنّه يتقدّمكم إلى الجليل"، يقول الملاك، في آخر الإنجيل، للنسوة الخائفات داخل قبر يسوع الفارغ، معيدًا إيّاهنّ وسائر التلاميذ إلى الجليل (٧/١٦). شاطىء البحر هو أيضًا مكان التبشير المثاليّ واللقاء بالناس والزحمة عند مرقس (١٣/٢؛ ٧/٣؛ ١/٤؛ ١/٥، ٢١). هو المكان المفضّل لديه، كما الجبل لمتّى. للبحر عنده إذًا رمزيّة

خاصّة: هو مكانٌ عامّ يرتاده الجميع. من قلب هذا العالم بالذات، يختار يسوع تلاميذه، من بين الناس والجماهير، ومن أبسط طبقات المجتمع. إنّنا هنا في قلب معضلة الاختيار الإلهيّ. من بين صيّادي بحيرة طبريّة، اختار يسوع أولئك الأربعة فقط، فانتشلهم من عبء هذا الدهر ليصطادوا شيئًا آخر غير السمك. في الكتاب المقدّس، يحبّ الله الكلّ، لكن يختار القلّة. الجميع محبوبون، لكن ليس الكلّ مختارين. قايين، مثلاً، ليس مختار الله، بل هابيل، لكنّه حبيبه؛ إنتقى الله موسى من غير أن يكره هارون؛ إصطفى داود الصغير من دون إخوته الكبار... في الاختيار إذًا خلاف وانقسام: يؤخذ الواحد ويُترك الآخر، يُختار هذا ويُرذل ذاك. يسوع نفسه قال: "أتظنّون أنّي جئت لأحلّ السلام في الأرض؟ أقول لكم لا، بل الانقسام. فيكون بعد اليوم خمسة في بيتٍ واحدٍ منقسمين، ثلاثة منهم على اثنين واثنان على ثلاثة: سينقسم الناس فيكون الأب على ابنه والابن على أبيه، والأمّ على بنتها والبنت على أمّها، والحماة على كنّتها والكنّة على حماتها" (لو ١٢/٥١-٥٣). بحريّةٍ تامّة إذًا يختار الله من يشاء.

## ب/ب[٢]

"فرأى سمعان، وأندراوس أخا سمعان" // "فرأى يعقوب بن زبدى، ويوحنّا أخاه": هذه ترجمة حرفيّة تبيّن أهميّة سمعان، معلّم مرقس، وعلوّ شأنه في إنجيل تلميذه. عُرِّف أندراوس بالنسبة إلى اسم أخيه سمعان، المكرّر مرّتين، حتّى ولو على حساب أناقة الأسلوب. لم تكن هذه حالة يعقوب مع يوحنّا، إذ استعيض عن اسم يعقوب بضمير متّصل (αὐτου).

## ج/ج[٣]

عمل التلاميذ الأوّلين كان صيد السمك. لم يكرّر الإنجيليّ تحديد عمل يوحنّا ويعقوب، كما فعل مع سمعان وأندراوس ("لأنّهما كانا صيّادَين")، تاركًا للقارئ النجيب أن يستنتج ذلك من طبيعة عملهما الموصوف: إصلاح الشباك. كانت شباك الصيد باهظة الثمن، لذا كانتُ تغسل وتُوضّب بعد كلّ جولة صيد (لو ٥/٢)، وتُصلَح وتُخاط خروقها أكثر من مرّة. وحين لا يستطيع صيّاد أن يشتري بمفرده كلّ مستلزمات الصيد وأدواته، كان يتعاون على ذلك مع شركاء آخرين، فيتقاسم أخيرًا وإيّاهم غلّة البحر. هذه كانت حالة صيّادينا الأربعة (لو ٥/٧). السؤال الذي غالبًا ما يُسأل هنا هو: لماذا اختار يسوع معظم رسله من محيط الصيّادين؟ ألم يلاقِ في تجواله مجتمعات أرقى ينتقي من بين أفرادها تبّاعًا له؟ بالطبع بلى، لطالما عاشر يسوع كبار القوم عند اليهود، من الأغنياء والوجهاء والعلماء والفرّيسيّين والكتبة وأعضاء من المجلس اليهوديّ العام... لماذا توجّه أوّلاً نحو صيّادي السمك أو نحو أمثالهم كالعشّارين (متّى)، والميليشياويّين من عصابات "الغيورين" المتطرّفة والخطرة (سمعان الغيور، ويهوذا الإسخريوطيّ ربّما)؟ لماذا الإصرار على مثل هذا المستوى من البشر؟ في هذا بالتأكيد حكمةٌ إلهيّةٌ عميقة الغور سنحاول سبرها بعد قليل.

**د/د٤**

في اللوحة الأولى يستشهد مرقس حرفيًّا بكلام يسوع. في اللوحة الثانية، اكتفى مرقس بفعل "دعا" (καλέω) الخاص بالدعوة، والكافي وحده. أمّا التعبير "صيّادَي بشر"، فلا يخلو من الغموض، لأنّه، بحدّ ذاته، ذو صدىً سلبيّ عند اليهود. في العهد القديم، استُعمِلَت هذه الصورة للدلالة على الله الديّان الذي سيصطاد الشعب الأثيم كمعاقبة له (حب ١/١٥، ١٧؛ إر ١٦/١٦). لكنّ العهد الجديد طالما رمز إلى الكنيسة بالشبكة، وإلى المسيحيّين، بالتالي، بالسمك "علق" في الشبكة. البحر، بدوره، يرمز إلى هذا العالم مع كلّ قواه الشرّيرة والمعادية لله. الرسل إذًا هم مَن سيصطادون الناس إلى ملكوت الله. هم مبشّرو الكلمة.

**ه/ه٥**

بعد الدعوة، يترك الأخوان الأوّلان الشباك (تجرّد مادي)، أمّا يعقوب ويوحنّا فالأهل مع العمل (تجرّد معنوي). لم يذكر مرقس أنَّ الأخوين الأوّلين تركا بيتهما، ليمهّد ربّما للآيات ١/٢٩-٣١، حيث نرى سمعان ما زال يسكن في بيته الخاصّ مع عائلته، ومن بينها حماته. لكنّ بطرس يقول لاحقًا ليسوع: "ها قد تركنا نحن كلّ شيء وتبعناك" (مر ١٠/٢٨). تركُهم كلّ شيء جاء بملء إرادتهم وحريّتهم. لا نجد في النصّ أيّ أثرٍ لأمر صدر من يسوع يقضي بأن يتركوا كلّ شيء، كشرط ليتبعوه. على عكس ما ورد في ١٠/١٧-٢٧ مع الشابّ الغنيّ، الذي صعب عليه وسيصعب على ذوي الأموال أن يدخلوا ملكوت الله، بسبب تعلّقهم المفرط بما لهم. فقر الروح هو إذًا علامة من علامات الملكوت الجديد: "طوبى لفقراء الروح فإنّ لهم ملكوت السماوات" (مت ٥/٣).

إتّباع التلاميذ ليسوع يأتي أيضًا بشكلٍ سريع، من دون تردّد. "لوقتهما" (εὐθυς) هي من أحبّ المفردات على قلب مرقس. في اللوحة الأولى، يستعمل مرقس الفعل الخاصّ بالإتّباع واللحاق "تبعاه" (ἀκολουθεω)، بينما، في اللوحة الثانية، يغيّر التعبير فيصبح "سارا خلفه" (ὁπισω αὐτου ἀπηλθον). في هذا الاختلاف مدلول رائع: مكان التلميذ الطبيعيّ هو خلف المعلّم لا أمامه. عندما حاول سمعان، لاحقًا، تخطّي يسوع واعتراض طريقه، ردّه إلى محلّه الذي عليه أن يكون فيه: "وكان يقول هذا الكلام صراحةً. فانفرد به بطرس وجعل يعاتبه. فالتفت فرأى تلاميذه فزجر بطرس قال: إرجع ورائي، يا شيطان" (مر ٨/٣٢-٣٣). التلاميذ الأوّلون إذًا نموذجيّون في دعوتهم. يطيعون فورًا كلمة يسوع التي هي ذات سلطان. وهو، بدوره، سيصيّرهم صيّادي بشر. إنَّ الفعل اليوناني المترجم بـ "تصيران" (γινομαι)، يُخيّء في طيّاته الجهد الذي سيبذله يسوع في تنشئة تلاميذه. ليس هناك من تتلمذ في الإنجيل من دون تنشئة، من دون شركة حياة مع المعلّم. إنّها مسيرة "استصحاب": "... فأقام منهم اثني عشر لكي يصحبوه" (٣/١٤). بل أكثر من ذلك، إنّها تعلّم من المعلّم في خلوةٍ وجهًا لوجه: "... ولم يُرد يسوع أن يعلم به أحد، لأنه كان يعلّم تلاميذه" (٩/٣٠-٣١). حتّى بولس نفسه، الذي لم يعرف الربّ معرفة بشريّة (٢كور ٥/١٦)، لم يصبح رسول الأمم إلا بعد تلك السنوات

الثلاث من الاختفاء والاختلاء التي قضاها في ديار العرب (غل ١٢/١). إلتصاق التلاميذ بيسوع يتطوّر شيئًا فشيئًا: فمن مكان العمل (الشاطىء) في نصّنا، إلى مجمع الصلاة في النصّ التالي (٢١/١-٢٨)، إلى بيت سمعان نفسه وشفاء أحد أعضاء عائلته في ٢٩/١-٣١. أصبح كلٌّ من هؤلاء الرسل أخا يسوع وأخته وأمّه وعائلته (مت ٤٩/١٢)[٢].

هذه الشراكة ليست وليدة صدفة أو رغبة عابرة عند يسوع، بل إرادة داخليّة عميقة فيه، طالما فكّر فيها، عجنها وخبزها في نفسه. هذا ما انفرد مرقس في التعبير عنه عندما قال: "وصعد يسوع الجبل ودعا الذين **أرادهم** (ήθελεν)، فأقبلوا إليه، فأقام منهم اثني عشر لكي يصحبوه" (١٣/٣). وحده مرقس يزيد هذا الفعل المهمّ "أرادهم"، المستعمل في أصله اليوناني في صيغة الماضي المستمر (imparfait). والمعلوم أنَّ هذه الصيغة تدلّ على مدّة العمل الطويلة أو على استمراريّته وتكراره. دعوة الرسل إذًا ولدت في رحم ابن الله، في تفكيره وقلبه وعقله وإرادته، وليست وليدة صدفة، لأن لا صدفة في الله. بولس، مثلاً، يؤكّد، في مطلع رسائله كلّها، أنّه رسول يسوع المسيح بحسب مشيئته الأزليّة وتدبيره الخلاصيّ (راجع مثلاً ١كور ١/١؛ ٢تيم ١/١).

هذه العلاقة المميّزة بين يسوع المعلّم وتلاميذه، ومن بعدهم كلّ تلميذ في كلّ زمان ومكان، هي سمة خاصّة به وبالمسيحيّة، لأنَّ العلاقة بين المعلّم وتلاميذه في القديم كانت مختلفة. ممّا لا شكَّ فيه أنَّ يسوع لم يكن الأوّل الذي دعا تلاميذ لاتّباعه. فالتتلمذ عادة معروفة عند اليهود، لاسيّما عند المعلّمَين المشهورَين هيلّل (Hillel)، من التيّار المتساهل المنفتح، وشمّاي (Shammaï)، من المدرسة المتشدّدة. إنّ التلميذ كان يختار معلّمه الحاخام ليدرس على يده، لا العكس. وكان عليه أن يقوم بخدمة معلّمه كواحدٍ من خدّامه، ما عدا تلك الأعمال الوضيعة والمذلّة، كأن يحلَّ سير حذاء معلّمه مثلاً. يوحنّا المعمدان خلّف أيضًا وراءه تلاميذ (مر ٢٩/٦). بالإضافة إلى جماعة قمران "الرهبانيّة" التي كان يرأس أعضاءها "معلّمُ البرّ".

أمّا في حالة يسوع، فالمعلّم، بقراره الحرّ وإرادته المطلقة، يختار مَن يشاء، وعلى التلميذ، من ناحيته، أن يلاصق معلّمه من دون انفصال، تاركًا كلّ شيء ليتبعه هو شخصيًّا. لا أحد من علماء اليهود تجاسر على أن يقول لإنسانٍ آخر: "إتبَعني". هذا الأمر إنّما هو دليل على علاقة شخصيّة حميمة بين التلميذ ومعلّمه.

## ٣- تأوين النصّ

[٢] كان متّى أوضح من مرقس (٣٤/٣) في إشارته إلى ذلك، عندما قال: "ثمّ **أشار بيده إلى تلاميذه** وقال: هؤلاء هم أمّي وإخوتي" (مت ٤٩/١٢).

**رهان على الله**

ماذا يقول هذا النصّ لنا اليوم؟ قصّة كلّ مدعو، في أيّ زمان ومكان، تشبه قصّة سمعان ورفاقه. ليس علينا أن نفهم كلّ شيء من أوّل الطريق. فاكتشاف شخصيّة المعلّم تأتي شيئًا فشيئًا، مع مرور الأيّام والسنين، عبر الخبرات المتتالية معه، عبر تجاربنا وسقطاتنا. لا بدَّ له من أن يوبّخنا أحيانًا لقلّة إيماننا، أو لطلبنا المفرط للضمانات أو للمعرفة المسبقة للخطط والبرامج... قد نقع أحيانًا في فخّ الرفاهيّة الزائدة، أو بالأحرى في فخّ التخطيط الزائد. أمّا مع يسوع، فلا بدَّ من المغامرة والرهان. إنّها مغامرة الإيمان، الذي يتنافى أحيانًا مع حاجتنا للمعرفة أو للنظر، "طوبى لِمَن آمن ولم يرَ" (يو ٢٠/٢٨). إنّها مغامرة إبراهيم الذي أطاع الربّ، وسار بحسب قوله من دون أيّة ضمانات مسبقة أو أيّة رؤية مستقبليّة (تك ١٢/١-٤). تُرى كيف لإبراهيم أن يصدّق وعود الربّ، الذي أمره بالانطلاق والمسير وراءه، وامرأته العاقر أمامه تذكّره دائمًا باستحالة إنجاب ذريّة يفوق عددها رمال البحر؟ تُرى أيّ اطمئنان تسلّل إلى نفس موسى، وهو يكلّم الله عبر علّيقة تشتعل فيها النار ولا تحترق؟ إنّه لعمري منظر يوقع في الإبهام وعدم الفهم، وما على موسى، بالتالي، إلاّ أن يؤمن ويسير (خر ٣/١-٦). الطلب الزائد للضمانة يشكّك في مصداقيّة الربّ ودعوته إلينا للمسير وراءه. بعض الضباب ضروريّ لاختبار إيماننا بالذي دعانا. مسيرنا وراءه عليه أن يكون وليد مجّانيّة خالصة منزّهة عن أيّة منفعة. فنحن إن تبعناه، فلأجله هو، وهو فقط، وليس لأنّه إله أرانا "المنّ والسلوى"، أو لأنّه يضمن لنا مستقبلاً زاهرًا، أو شيخوخةً صالحة، أو مركزًا مرموقًا، أو مالاً وفيرًا، أو سمعةً طيّبة، أو جماعةً حاضنة، أو رئيسًا متفهّمًا،... ضمان المدعوّ الوحيد هو الله نفسه وكلمته الثابتة التي لا تتغيّر، أمّا الباقي فيزول ويذهب. عندما سُئِلَ الأب هنري بولاد اليسوعيّ عن تحديدٍ للراهب، وعبره لكلّ تلميذ، قال: "إنَّ الراهب هو مَن راهن بحياته كلّها على الربّ. هو مَن كان الله كلّ شيء له... إنَّ الراهب هو الشخص الذي نذر حياته لله"[٣]. إنّه رهان على حياة بشر، لا على ممتلكات أو مال. فالرهان إذًا كبير، والمخاطرة قيّمة وعظيمة.

**رهان على التلميذ**

وإذا كان التتلمذ هو رهان التلميذ على الله، فهو أيضًا رهان الله على المدعوّ. ألم يراهن يسوع عندما دعا حفنةً من الصيّادين، العفويّين، ليسيروا وراءه ويرسلهم ليبشّروا باسمه؟ ألم يواجه يسوع، مرّات عديدة، تجربة الوقوع في الإحباط واليأس من تلاميذه الثقيلي الذهن: "أيّها الجيل الكافر، حتّامَ أبقى معكم؟ وإلامَ أحتملكم؟" (مر ٩/١٩). لقد بقوا، حتّى ساعة صعوده إلى السماء، غريبين عن تفكيره وبعيدين عن فهم رسالته، عندما سألوه: "يا ربّ، أفي هذا الزمن تعيد الملك إلى إسرائيل" (أع ١/٦).

[٣] هنري بولاد، **الحياة الرهبانيّة في أيّامنا**، سلساة موسوعة المعرفة المسيحيّة، الحياة الروحيّة ٥، دار المشرق، لبنان ١٩٩٣، ٦.

ألم يراهن الله على ابراهيم، ذلك البدويّ المتنقّل و"الآراميّ التائه" (تت ٥/٢٦)، الملعون في جسد امرأته المائت؟ ألم يخاطر الله أيضًا بدعوته موسى، ذلك الإنسان الذي "ليس رجل كلام... ثقيل الفم وثقيل اللسان" (خر ١٠/٤)، "المسكين جدًّا أكثر من جميع الناس الذين على وجه الأرض" (عد ٣/١٢)، الذي يذيبه الخوف من مجابهة شعبه وملك مصر؟ لقد برع بولس، كعادته، لما تكلّم عن منطق الربّ في اختياره البشر: " ما كان في العالم من حماقة فذاك ما اختاره الله ليخزي الحكماء، وما كان في العالم من ضعف فذاك ما اختاره الله ليخزي ما كان قويًّا، وما كان في العالم من غير حسبٍ ونسبٍ وكان محتقرًا فذاك ما اختاره الله: اختار غير الموجود ليزيل الموجود، حتّى لا يفتخر بشر أمام الله" (١كور ١/٢٧-٢٩). كلام مشابه لكلام بولس قاله سميّه الأب بولس الياس اليسوعي: "لم يكن أولئك المدعوّون في الكتاب المقدّس أشخاصًا كاملين، وقد كانوا أدرى بذلك من سواهم، على أنّهم كانوا ذوي إيمانٍ متينٍ بالله. أسلموه زمام أمرهم، وغامروا مغامرة الإيمان الكبرى على طلبٍ منه. وخاضوا معركة النور والظلمة، معركة النعمة والخطيئة، يقينًا منهم أنّهم سيكونون الفائزين والرابحين. لأنّه تعالى سيكون دائمًا معهم ليعضدهم، وهو أمين صادق بوعده، وقد اختارهم ودعاهم على علاّتهم ونقائصهم، ليُظهر غنى قدرته الإلهيّة في ضعفهم ووهنهم"[٤].

**تلاميذ "صيّادون"**

هنا بالضبط نستطيع ربّما أن نلج إلى عمق الحكمة الالهيّة في اختيارها صيّادين وميليشياويّين وغيرهم من صغار القوم. باختياره تلاميذ من هذا المستوى الاجتماعي، يوجّه الربّ رسالتين معبّرتين:

الرسالة **الأولى** إلى الرسول نفسه، ليقول له إنّه إن اختاره الله تلميذًا له فإنّه يبقى "صيّادًا"، رجلاً منتخبًا من بين كثيرين، إنسانًا ككلّ بشر، ضعيفًا، سريع العطب. يبقى في التلميذ شيء من "الصيّاد"، من عالمه القديم، من إنسانه العتيق المتهوّر، العفويّ، السريع التأثّر. لنتذكّر مثل سمعان بطرس، الصيّاد الهوى والطبع. شخصيّته العفويّة الجريئة والمتهوّرة أحيانًا خلقت له الكثير من المتاعب والمشاكل مع معلّمه. اتّباعه ليسوع وقربه منه لم يُلغيا طبعه "الصيّاديّ": نراه يتحمّس، يعترف، يهدّد، يرغي ويزبد، وبسرعة يندم، يتخاذل، يتراجع ويتوب. ربّما لأجل هذا أحبّه المسيح كثيرًا، وسلّمه زمام رئاسة جماعة الرسل والكنيسة. متعجرفو القلب ومتكبّرو النفس، حسب لاهوت مرقس، لا مكان لهم مع المسيح. لا يمكن أن يصحبه من أتاه كاملاً مكمّلاً، ممتلئًا من نفسه، واثقًا بخطواته كلّ الثقة. من أراد أن يتتلمذ للمسيح لا بدّ له من أن يمرّ بتجربة الفراغ، يعني أن يكون فارغًا من كلّ شيء حتّى يملأه المعلّم من كلّ ما عنده. "ها قد تركنا كلّ شيء وتبعناك" (مر ١٠/٢٨)، هكذا يكون الفراغ. والفراغ هو استسلام كلّيّ بين يدي الربّ. نعود أيضًا إلى مثل سمعان بطرس الرائع. في أوّل لقاء بينه وبين يسوع، وعندما أراد يسوع أن يدعوه، يخبرنا لوقا بأنّ سمعان، **الصيّاد**، ارتمى عند قدمي يسوع وقال: يا ربّ، تباعد عنّي، إنّي رجل خاطئ" (لو ٥/٨). بعد هذا الاعتراف، استحقّ سمعان كلمات يسوع: "لا تخف، ستكون بعد اليوم

[٤] بولس الياس، **المدعوّون في الكتاب المقدّس**، سلسلة الحياة الروحيّة، دار المشرق، لبنان، ٣٠.

للناس صيّادًا" (٥/١٠). لم يُخفِ سمعان كونه "صيّادًا" ضعيفًا خاطئًا. إنّه نوع من الامّحاء، والامّحاء يلي معرفة الذات الحقيقيّة.

الرسول "الصيّاد" إذًا هو رسول يعرف ذاته حقًّا، يعرف أنّه لا يستحقّ أبدًا الدعوة السامية التي دُعي إليها، وإن دعاه المعلّم فليس لأنّه غنيّ المواهب بل بنعمة مجّانيّة من لدن الله. الرسول "الصيّاد" هو إنسان يتذكّر دائمًا من هو، ومن أين أتى، ومن بين من دعاه الربّ. هو إنسان يستوعب ضعفه، يعرف أن يتوب إن خطئ، وأن يستغفر الله إن أنكره. هو إنسان يعرف أن يتخلّى بسرعة عمّا هو له، لأنّ لا شيء له، أن يستسلم لمشيئة المعلّم، لأنّ في ذلك هواه وسعادته.

أمّا الرسالة **الثانية** فهي للناس أجمعين، وكأنّ الله يقول لهم: إنّ المكرّسين بينكم هم بشر مثلكم لا ملائكة هابطة من السماء. هم "صيّادون" لهم هفواتهم وأخطاؤهم، فعليكم، بالتالي، أن ترحموا خطيئتهم وتتفهّموا ضعفهم وترفعوهم إن هم سقطوا. يقترب مرقس هنا من تفكير القدّيس بولس الذي يصف التلميذ بأنّه "آنية من خزف" (٢كور ٤/٧) سريعة العطب، تحمل طيب المسيح لكن في إطار ضعيف هشّ وسهل الكسر. في رسالته الأولى إلى أهل كورنثس، يستفيض بولس في شرح فكره ويقول مخاطبًا مراسليه، وعبرهم كلّ جيل في كلّ زمان ومكان: "إنّي أرى أن الله أنزلنا نحن الرسل أدنى منزلة كالمحكوم عليهم بالموت، فقد صرنا معروضين لنظر العالم والملائكة والناس. نحن حمقى من أجل المسيح وأنتم عقلاء في المسيح، نحن ضعفاء وأنتم أقوياء. أنتم مكرّمون ونحن محتقرون. ولا نزال حتّى هذه الساعة أيضًا نجوع ونعطش ونعرى ونُلطم ونشرّد، ونجهد النفس في العمل بأيدينا، نُشتم فنبارك، نُضطهد فنحتمل، يُشنّع علينا فنردّ بالحسنى. صرنا شبه أقذار العالم ونفاية الناس أجمعين، إلى اليوم" (١كور ٤/٩-١٣). في كلام بولس هذا واقعيّة رائعة. يصوّر لنا حقيقة المكرّس من دون مواربة.

نعمة الاختيار لا تلغي أبدًا الطبيعة البشريّة، لا تمحو ميولها بل توجّهها، لا تقيها التجارب بل تقوّيها لمجابهتها. إنّها خبرة عاشها مرقس إمّا بذاته أو مع رسل الربّ وتلاميذه. كما رأينا، لم يوفّر الإنجيليّ الثانيّ هؤلاء الإثني عشر من غضب يسوع وتوبيخه لقلّة إيمانهم وغلاظة قلوبهم. هالة الرسول محفوظة عند متّى ولوقا أكثر منها عند مرقس. هنا أيضًا يقترب صاحب الإنجيل الثاني من القدّيس بولس في أنّ ضعف الرسول هو قوّته في آنٍ معًا، على شرط أن يوصله هذا الضعف إلى التعلّق أكثر بنعمة الله وقدرته: "تكفيك نعمتي، إنّ قوّتي في الضعف تكمل" (٢كور ١٢/٩).

في ملكوت المسيح إذًا تنقلب المقاييس. إذا كانت الحظوة في ملكوت البشر من نصيب كبار القوم ووجهائهم، ففي ملكوت المسيح "الصيّادون"، "الصغار" (لو ١٠/٢١)، هم الذين يملكون عن يمين الله وشماله.

ختامًا، نقول إنَّ التلاميذ هم أوّل مَن اقتحموا الملكوت و"اغتصبوه"، على حدّ قول يسوع (مت ١١/١٢). إنّهم أوّل مَن آمن بالإنجيل المعلَن حديثًا. يكفي يسوع أن يرى ويقول بضع كلمات حتى يتركوا كلَّ شيء ويتبعوه. إختار زوجين من الإخوة، من عائلتين اثنتين، حتّى يصبحوا كلّهم عائلة واحدة. إختارهم

"ليصحبوه"، وما التلمذة إلاّ أن أكون دائمًا مع المعلّم، من نصيبه، لأنّه، كما يقول صاحب المزمور، هو "نصيبي في أرض الأحياء" (مز ١٤٢/٦).